

العقيدة

للدكتور ابراهيم يومي مذكور



غذاء القلب وطمانينة الروح ، ملجأ الضعيف وسلاح القوى . هي حقيقة امتزجت بحلاوة الخيال ، أو خيال لبس أحياناً ثوب الحقيقة . وما هذا الخيال وتلك الحقيقة إلا صرح كثير أما شدناه بأنفسنا لأنفسنا كي نكمل ما في عالم الواقع من قصص ، ونحقق بعض ما نصيبو إليه من ميول وآمال . فإن ما فينا

من قلب خافق وعواطف متأججة ، يزرع إلى أمانى ورغبات لا حصر لها . ولدتنا في تصور هذه الأمانى وسعادتنا في السير وراءها . فإن لم نجد السبيل إلى تحقيقها حيث نرى ونسمع رسماً لها مملكة سامية فوق مملكة الحس والشاهدات ، وآمانا بها إيماناً لا يقل عن إيماننا بالمرئيات والملموسات . على أن ما فينا من عقل يحلل ويرهن ويحلل يدفنا إلى الاعتقاد والاستمساك بآراء تنصب لها وندبنا بها . فالعقيدة حاجة إنسانية وأثر من آثار قوى النفس على اختلافها . وهي فوق هذا ضرورة اجتماعية وركن هام من أركان التعاون والإرتباط . ولا يمكن أن تتصور جمعية بشرية لا يخضع أفرادها لمبدأ واحد وعقيدة مشتركة . وأحاديث الدين والعقيدة من أول الخصائص التي تميز بها الشعب والأمة . وليست العقيدة المتحدة مجرد رمز وشارة للأمة لحسب ، بل هي مصدر تأثير كبير وقوة لانهائية . هي مبعث حرارة تدفئ القلوب فتدفعها إلى الأمام وتملؤها بالأمل والرجاء . ومستودع كهربائية عظمى يرسل في الأفراد ما يرسل من موجات سالبة وموجبة فيتجاوزون ويأثفون ، ويلتقون عند غاية واحدة وغرض أسمى . وإنا لنسير في الحياة غالباً بدافع من عقائد مختلفة بين دينية ووطنية وعلمية

(الفغار) . وقرر سبحانه أنه لا تبديل لسفته في الخلق ولا تحويل (فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله) ، (فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً) ، (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) . وهذا المبدأ ، مبدأ ثبوت الفطرة من غير تبديل ، الذي أعلنه الله سبحانه للناس في القرآن ، مبدأ عام يشمل جميع ميادين الفطرة ، ما تطاول العلم إلى بحثه في ميدان المادة ، وما لم يتطاول إلى بحثه في ميدان الاجتماع ، كما هو مقتضى سياق تلك الآيات في القرآن

أما أصل انسجام الفطرة فقد قرره الله سبحانه حين قل جل وغلا : (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حير) . وارتفاع التفاوت يستلزم حتماً ارتفاع التناقض الذي هو أكبر التفاوت ؛ وقد تقرر نفس الأصل في صورته الأخرى : صورة انتفاء الباطل بالحق في قوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) . فالاسلام يؤيد العلم تأييداً تاماً حين يخون العلم قدرته ، وتضعف حجته . ويستطيع العلم في يقين المسلم أن يمضي في سبيله مطمئناً على وجوده ، غير مبال باعتراض الفلسفة ، اعتماداً على ما أعلنه رب الفطرة للناس في القرآن

أما أصل استقلال الفطرة عن الانسان فقد أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم للناس يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت الشمس فتحدث الناس أمها كسفت لموت ابراهيم ، فخطبهم صلى الله عليه وسلم فيما روى البخارى خطبة قال فيها : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وصدقوا » ؛ ثم زاد القرآن الكريم ذلك الأصل تقريراً وتوضيحاً في قوله تعالى : (أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) . فأنت فيما يتعلق بأصول الفطرة ترى تمام الاتحاد بين ما قام عليه العلم وما قرره الاسلام (يتبع) محمد أحمد الفمراوي

بالشكال ما بنوه باليمين . وليس في الشك القبول امتهان للحقيقة أو اعتداء عليها ، بل هو اعتداد بها وتقدير لها وجد في طلبها . حقاً إن الشك حيرة وحى قد تخشى على النفس مغبتها ؛ بيد أنه قل أن يقدر اليقين قدره من لم يفرق نحي سجار الشك قليلاً . والضال إذا وجد الطريق كان له بهذا فرحة تملأ العين والقلب

اليقين كلمة عذبة الجرس حلوة الرنين سامية المعنى رفيعة الدلول ؛ تطرب الأذن لسماعها ، وتتوق النفس دائماً إلى أن تحظى بحقيقتها . ينشده العالم في بحثه ، ويرى إليه الفيلسوف في درسه ، كلاهما يبنى أن يصل إلى الحقيقة الثابتة التي يدعن لها الجميع في مختلف الظروف والأمكنة . وإذا كان الشك اضطراباً وحيرة فاليقين هدوء وطمأنينة . هدوء لأنه راحة بعد عناء ، ووصول بعد مجهود ، وطمأنينة لأنه حصن حصين ، وركن أمين ؛ وكيف لا وهو قوة تستمد سلطانها من نور الحقيقة ، وحال يشعر المرء فيها بأنه لا يسمع إلا صوت الحق ولا يصنى إلا لندانه . ولو تأملنا لوجدنا أنا في مرحلة اليقين أقوىاء ضعفاء : أقوىاء لأننا نحس بأننا نقذفنا إلى قلب الأشياء ووصلنا إلى قمة العالم وتجردنا من قيود المادة والزمن واتصلنا بكل ما هو باق أزلي ، وضعفاء لأن جلال الحقيقة التي نعتقها أسكت كل صوت فينا ، فألنى هو اجسنا وخواطرنا ، وقضى على ميولنا وأهوائنا ، وأضعف شخصيتنا أو محاسنها بحيث نصبح ولغة العالم والانسانية جماء ذيدتنا وشعارنا هذا هو اليقين في ظواهره وأثره وشدته وبأسه . فهو إذن العقيدة في أكل صورها والايمان في أسمي أشكاله . وكثيراً ما حاول بعض الباحثين فصل اليقين من العقيدة ، والمباعدة بين العلم والدين ؛ ووضع حاجز بين العقل والعاطفة ؛ إلا أن اليقين لا يتحقق إلا بعد عقيدة سابقة ، والعقيدة إن سمت وكلت أُنحت يقيناً . والعلم برهن غير مرة على أن له نطاقاً لا يتعداه وحدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها ؛ فليدع الدين يتكلم فيما أعد له ويتصرف في دائرته . والانسان عقل وقلب وتفكير وعاطفة ؛ ومن البعث أن يهمل أحد هذين الجانبين أو يلنى ، فإن ذلك خروج على الطبيعة وعكس لنظام الأشياء . وليس من عار أن يكون في الأديان قدر كبير يرضى المواطنين الانسانية ، بل العالـ

كله أن تخلو من ذلك .
ابراهيم يرمى مكرراً

وفلسفية . والعقيدة كالأمل الحلو إن لم تملك الغاية فقد آنتك ونمت بها زمناً . على أنها في ساعة الفشل خير عزاء ، وعند اشتداد الخطب أقوى ركن تطمئن إليه إن وهنت الأركان كلها . وإذن فالعقيدة للفرد عون ونصير ، وللجمعية باعث ومثير وهاد ومرشد

ومن حسن حظ الانسانية أن المرء ميال الى الاعتقاد بفطرته ، ومدفوع اليه بغيرته ؛ فالتسليم أصلى والشك عرضي ، ولا أدل على هذا من أن حياة الانسان الأول كانت سلسلة من العقائد يرتبط بعضها ببعض ، وقد توارثها الخلف عن السلف وأذعنوا لها دون بحث وتمليل . والطفل وهو صورة مصغرة للانسانية في أول نشأتها يعلم بكل شيء يلنى إليه ، ويعتقد في السحرة والشعوذين والجن والشياطين . ولا تبدأ حيرة الشك لديه إلا حين يصطدم عالم الفكر بعالم الواقع ، ويتعارض أمامه أمران كان يؤمن من قبل بثبوتهما . فترتاب نفسه وتشعر بشيء من الخيبة لم تكن تتوقعه . ويظهر أن الشك كان في أول أمره ظاهرة عاطفية قبل أن يكون مناقشة عقلية وحساباً منطقياً . وليس الشك شراً كله ، بل قدر منه مدعاة البحث ومفتاح الحقيقة ، وقديماً قالوا : الشك مبدأ الحكمة ومدرسة الحقيقة . وقد استطاع سقراط بين الاغريق بشيء من الشك التهكمي أن يستخرج المعارف من نفوس محدثيه ومناقشييه . ثم جاء ديكارت في التاريخ الحديث فاتخذ من الشك طريقة فلسفية ومبدأ علمياً . للشك حكمته ومنفعته ، فهو ينبه الفلسفة إلى أخطائها ويقف العقل عند حده ويرشده إلى نقصه . غير أن قيمة الشك في طريقة استعماله ووضعه في موضعه . فالشك في كل شيء قضاء على المعرفة من أساسها وهدم للحقائق على اختلافها . وقبل المعلومات من غير بحث وتحجيص اتقياد أعمى واستسلام مرذول وضعف في التفكير . وغنى عن البيان أن الشك ضرب من الحرية واستقلال الرأي . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الشكك القدامى والمحدثين لفتوا نظر الانسانية إلى أخطائها الشائعة وكشفوا النطاء عن كثير من أباطيلها المصلة . وكل ما يؤخذ عليهم أنهم أرسلوا للشك العنان ؛ وجالوا به في كل ميدان ، فقصوا على ما كان فيهم من عبقرية ، وأصبح شكهم داء بدل أن يكون دواء ، وهدموا